الوحدة النفسية فى القصائد الجاهلية

يتفق اكثر النقاد المحدثين على أن القصائد الجاهلية فى جملتها تفتقر إلى الوحدة الموضوعية والعضوية ولكن الملاحظ أن نظرهم إلى وحدة الموضوع وترابط صياغته وتطورها مع تطور الافكار والعواطف وتسلسلها وتكاملها قد أداى بهم إلى اهمال ما يمكن ان نطلق عليه «الوحدة النفسية فى القصائد الجاهلية» وهى وحدة يصعب على القارىء العادى أو على الباحث المتسرع استظهارها وتمثلها ويتعذر عليه شرحها وتفصيلها لأنها تحتاج إلى دراسة القصائد دراسة متأنية واعية وإلى معرفة الظروف المحيطة بها والملابسات المؤثرة فيها والغايات المستوحاة منها معرفة دقيقة واضحة.

وقد احس المستشرق جوستاف جرينباوم هذه الوحدة النفسية احساسا ضعيفا غامضا لم يقدر علي توضيحه وضرب الامثلة الدالة عليه وانما اكتفى بالاشارة إليه والتعبير عنه بقوله: «إن هناك نوعا من رابطة نفسية بين القفز الاستطرادى من موضوع إلى موضوع وبين الانتقالات العاجلة من حال إلى حال ومن انتباه إلى انتباه فى القصائد الجاهلية» دراسات فى الأدب العربى ص :٤٢

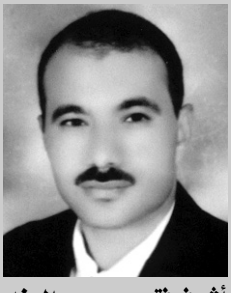

د.أشرف فتحى محمود الجندى
عضو الجمعية العالمية الإسلامية للصحة النفسية

معنى الوحدة النفسية

ومعنى الوحدة النفسية أن الشاعر إذا كان صادق وكان انفعاله بتجربته وموقفه عميقا فإنه يلون مقدمة قصيدته تلوينا عاطفيا ينبثق من موضوعها ومناسبتها وهدفه منها انبثاقا فإذا هى وقد ساد فيها وسيطر عليها الانسجام النفسى على اختلاف اجزائها

قصائد الرثاء

وآية ذلك أن الشاعر إذا قال قصيدة فى الرثاء يتفجع فيها يلى هالك أو ميت ففى الأعم الاغلب أنه لا يفتتحها بمقدمة غزلية أو طللية بل يختار لها بيتا أو مجموعة أبيات فى الحكمة تتلاءم مع موضوعها ومقامها وتدور على التعزية والتسلية حتى المراثى القليلة التى استهلها بعض الشعراء يصف الاطلال وفقوا فى استهلالها به أبعد التوفيق لأن مشهد الديار المقفزة الموحشة وما يثيره فى النفوس من الأحزان والآلام ومن التفكير فى البقاء والفناء وفى الحياة والموت يتفق مع موضوع المرثية وظرفها المؤلم أشد الاتفاق وبالمثل حين تغزلوا فى مقدمات بعض المراثى . فإنهم لم يعبروا فى غزلهم عن صبابتهم ولهوهم بالمرأة وإنما تحدثوا فهي عن صدودهم عنها وقلة اشتغالهم بها

قصائد الفخر والهجاء

ومعناها أيضا أن الشاعر إذا نظم قصيدته فى الفخر أو الهجاء يعتد فيها بشخصيته وقبيلته، ويدافع عنها وينتصر لها فإنه يحمل مقدمتها معانى الاعتزاز والتعالى ويظهر ذلك بجلاء فى ترفعه على محبوبته واصراره على معاملتها معاملة الند للند،لا معاملة المتعلق بها أو المتذلل لها

وإذا ألف الشاعر قصيدته فى الوساطة والدعوة إلى الالتزام بمعاهدة أو هدنة أومبدأ وكان لا يعرف نتيجة وساطته ودعوته ومدى استجابة الآخرين له فإنه يفتتحها بمقدمة مضطربة حائرة تصور فى حقيقة الأمر اضطرابه وحيرته فى مصير ما نادى به ودعا إليه

قصائد فى المراجعة السياسية

إذا صاغ الشاعر قصيدته فى المراجعة السياسية فى أمر من أمور قبيلته لأن المسئول عنها أو المتحكم فيها اساء إليها أو اعتدى عليها وكان واثقا من قوتها ومقدرتها على الدفاع والردع فأنه يشمخ فى مقدمة قصيدته اعلى شموخ ويكون حازم فيها أشد الحزم وإذا كان عارفا أن قبيلته أضعف من أن تحارب خصمها وتنتقم لنفسها فأنه يضمن مقدمة قصيدته معانى الرجاء والامل والاستعطاف المؤثر لعل ذلك المسئول أو المتحكم يرق له ويتفهم موقفه ويلبى رغبته وأمنيته.

ومن تتمة الحديث عن الوحدة النفسية فى القصائد الجاهلية أن الشاعر كان دقيقا فى انتخاب الاجزاء التى تلى مقدمة قصيدته وتتوسط بينها وبين موضوعها الاساسى ذلك أنه إذا كان فى موضوع الراثى والواعظ ووصف بعد المقدمة منظرا من مناظر الصيد بين الصياد وكلابه وبين ثور الوحش فإنه كان ينهى المعركة بقتل ثور الوحش يرمز بهذه النهاية إلى أن كل كائن حى مهما استتر أو ناور أو قوى فلابد أن يدركه الموت

أما إذا كان فى مقام المدح فكان يختتم المعركة بإخفاق الصياد أو بجرح كلابه وموتها وهو يرمز بهذه الخاتمة إلى جبروت ممدوحه وعظمته وأن احداً لا يستطيع مغالبته ولا يتمكن من قهره وأما إذا كان فى موضوع الاعتزاز بشخصيته والافتخار بقبيلته فإنه كان إذا وصف رحلته فى الصحراء وناقته التى حملته فى رحلته وأوصلته إلى غايته يشخص قوة ناقته وطاقتها الخارقة على الانبعاث فى السير ومقدرتها الفائقة على احتمال مهالك الصحراء واخطارها حتى تبلغه إلى نهاية رحلته وهو يرمز بذلك

إلى فتوته وفروسيته ومنعة قبليته وصبرها فى الشدائد والمحن وخروجها منها سالمة غانمة

قصيدة المرقش فى رثاء ابن عمه

والشواهد على ما نقول أكثر من أن نحصيها فمن المراثى التى استهلت بوصف الاطلال قصيدة المرقش الاكبر فى رثاء ابن عمه ثعلبة بن عوف فقد ألم فى أولها بتصوير المنازل الخالية الخاوية تصويرا ينسجم مع موقف الرثاء والجزع والدموع دون أن يتوسع فيه أو يسهب فى عرض مقوماته وتقاليده

هل بالديار أن تجيب صمم
لو كان رسم ناطقا كلم

ثم اضرب عن وصف الاطلال ووحشتها وانتقل إلى الحديث عن صاحباته المرتحلات معلنا أن الديار الدائرة والمحبوبات المفارقات لا تحزنه فى هذا الموقف العصيب ولا تستثير فيه شوقا ولا وجدا ولا هوى وإنما الذي يؤلمه ويبكيه هو مقتل ابن عمه

بل هل شجتك الطعن باكرة
وكأنهن النخل من ملهم
لم يشج قلبى مر الحوادث إلا
صاحب المتروك فى تغلم

ومضى بعد ذلك يصور كيف أن الموت نهاية كل إنسان وحيوان متخذا دليله على ذلك من حياة الوعول المتوحشة فى شماريخ الجبال الباذخة واستتارها من الموت فى قممها الشامخة وأنها مهما طال بها الاجل وابتعدت عن الخطر وسلمت من الهلاك أكبر مدة فإن أسباب المنية لابد أن تصيبها إن لم يكن بالسهام والكلاب فبتعثر أقدامها وهى تنتقل فى رؤوس الجبال الحادة

لو كان حى ناجيا لنجا
من يومه المزلم الاعصم
فى باذخات من عماية أو
يرقه دون السماء خيم
يرقاه حيث شاء منه وإما
تنسيه منية يهرم
فغاله ريب الحوادث حتى
زل عن اريادة فحطم

المزلم: الوعل المجتمع الخلق والاعصم: الذى فى يده بياض

وعماية وخيم: جبلان وتنسه أصلها تنسئه أى تؤخره ونالة: أهلكه والارديا: جمع رید، وهو رأس الجبل

قصيدة بشر بن أبى خازم الاسدى

ومن القصائد التى قيلت فى المديح ولم يتنازل الشاعر فيها عن كرامته وعزته ولا خلف احساسه بنفسه فى مقدمتها ـ قصيدة بشر بن أبى خازم الاسدى فى مديح أوس بن حارثة الطانى وكان بشر هجاه واقذع فى هجائه بسبب تضارب مصالح القبيلتين ثم توادعا وتصافيا وكف بشر عن التشهير به والتحقير له ومع ذلك ظل حذرا فى علاقته معه لا يتخلى عن اعتداده بذاته وتمجده بقبيلته حتى فى مديحه الذى كفر به عن أهاجيه السابقة فيه فنحن نراه فى مقدمتها يلمح تلميحا واضحا إلي أنه صحيح العزم على التحول عنه والرجوع إلى هجائه إذا هو حاول الكيد له أو المكر به

كفى بالنأى من أسماء كافى
وليس لحبها إذ طال شافى
بلى إن العزاء له دواء
وطول الشوق ينسيك القوافى

واستمر يموه على أوس بهذا الغزل التقليدى الذى ذكر فيه محاسن صاحبته المادية ولكنه لم يستطع كتم عواطفه نحوه ولم يرد أن يخفى عليه موقفه منه ولذلك ختم هذا الغزل بالتلويح لصاحبته بأنها أن قطعته قطعها وتمادى فى هجرها ولج فى الابتعاد عنها وإن اظهر فى شعره أنه ما يزال يحبها ويحرص عليها

وحاجة ألف بدلت صرما
إذا هم القرينة بانصراف
على أنى على الهجران سعدى
أمنيها المودة فى القوافى

واكبر الظن أنه لم يوجه الحديث إلى صاحبته بل إلى أوس وأنه أراد أن يعلمه به أنه إذا غدر به وبقبيلته فإنه قادر على مناولته ومعاداته

وانتقل بعد ذلك إلى وصف رحلته وناقته وصفا طويلا أبان فيه عن صلابتها وقوتها وقدرتها على اجتياز مجاهل الصحراء وقطع قفار الارض

فسل طلابها وتعز عنها
بناحية تخيل بالرادف
شججت بها إذا الآرام قالت
رؤوس اللامعات من الفيافى

قالت: من القليولة أى الراحة فى الظل ظهرا

متوسلا به إلي التغنى بشدته وصرامته وإلى اظهار فخامة قبيلته وانهى قصيدته بمديح أوس منوها بحمايته للجار وكبر همته وعراقة نسبه وسعة خبرته

معلقة زهير بن ابى سلمى

ومن القصائد التى نظمت فى أوقات الفتن والتطاحن بين القبائل العربية وصيغت فى المناداة بالتصالح والتصافى والوفاء بالعهود والمواثيق والاعتصام بالسلام وكان أصحابها يجهلون أثر مناداتهم بين القبائل ومبلغ استماعها لهم واخذها بآرائهم وسادها الاضطراب وبدت فيها الحيرة من اولها إلى آخرها فأدق شاهد يوضحها معلقة زهير بن أبى سلمى التى قالها فى الحرب بين عبس وذبيان وفى الثناء على الحارث بن عوف وهرم بن سنان الذبيانين اللذين تدخلا بين القبيلتين وحلا الخلاف الذى حل بينهما وتحملا ديات القتلى من كل منهما فنحن نلاحظ أن زهيرا افتتح معلقته بوصف الاطلال وصفا تقليديا فى الظاهر ولكنه لم يجعل همه الاستكثار من التقاليد الفنية واظهار براعته فى حفظها وحشدها فى مواضعها الموسومة وإنما اختار منها مجموعة ثم نسقها تنسيقا رائعا كشف فيه عن الشكوك التى كانت تساوره وهو واقف ازاء الديار المتغيرة المندثرة يتفرس منها ويعيد النظر فيها ليتأكد من أنها بقايا ديار زوجه أم أوفى

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم
بحومانة الدراج فالمتثلم
ديار لها بالرقمتين كأنها
مراجيع وشم فى نواشر معصم
بها العين والآرام يمشين خلفة
واطلاؤها ينهضن من كل مجثم
وقفت بها من بعد عشرين حجة
فلأيا عرفت الدار بعد توهم
أثافى سفعا فى معرس رجل
ونوايا كجزم الحوض لم يتهدم
فلما عرفت الدار قلت لربعها
ألا أنعم صباحا أيها الربع واسلم

المراجيع: جمع مرجوع وهو المجدد.

والنواشر : العروق وخلفة: يذهب شىء ويجىء شىء والاطلاء: الأولاد واللأئ: الجهد والسفع: السود»

والأرجح أن المناسبة المضطربة التى نظم زهير معلقته فيها والغاية البعيدة التى كان ينشد تحقيقها بها وجهله بنتائج دعوته إلى السلام هى التى لونت مقدمة معلقته هذا التلوين وهى التى جعلته يكثر من الظن والشك فى اثنائها لأنه كان متأثرا أعمق التأثر بالأفكار والخواطر التى كانت تراوده بشأن مناداته بالسلام فصاغ المقدمة الطليلة هذه الصياغة التى عبر فيها عن قلقه وحيرته وظل عنصر الظن والشك يلح عليه فى بقية المعلقة ويظهر من خلال أبياتها إذ نراه يسأل صاحبه عن محبوباته المرتحلات فى الصحراء وما يتراءى له من هوادجهن هل هو لهن أم لغيرهن؟

تبصر خليلى هل ترى من ظعائن
تحملن بالعلياء من فوق جرثم

وبعد أن مدح ذبيان راح يحذر عبسا وذبيان من التنكر للعهد والنكث به.

فمن مبلغ الاحلاف عنى رسالة
وذبيان، هل أقسمتم كل مقسم
فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم
ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر
ليوم الحساب أو يعجل فينقم

كما بث فى أبيات الحكمة التى اختتم بها المعلقة شيئا من حيرته وجهله للمستقبل وشيئا آخر هو إنذاره للعبسيين والذبيانيين وأنهم إذا ناوروا بقبولهم للصلح واضمروا الشر من جديد فإن الأيام كفيلة بأن تجلو الحقيقة وتكشف عن خططهم التى أسروها

وأعلم علم اليوم، والأمس قبله
ولكننى عن علم ما فى غد تحسم
ومهما تكن عند أمرىء من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم
ومن يوف لا يذمم ومن يفض قلبه
إلى مطمئن البر لا يتجمجم

قصيدة المثقب العبدى

ومن قصائد المراجعة السياسية التى يبدو فيها الانسجام التام بين مقدماتها وموضوعاتها قصيدة المثقب العبدى التى انشدها فى بلاط عمرو بن هند احد ملوك المناذرة بعد أن اصطدم مع قبيلة عبدالقيس بالبحرين وتنكر لها وأذاها وضيق عليها فنحن نبصر المثقب العبدى فى مقدمتها الغزلية هائجا عنيفا حازما اذ يطلب إلى صاحبته أن تكون صادقة وفية وألا تسوف فى موعدها له ولا تخدعه بكلامها العذب فإن الموعد الكاذب لا يرضيه والقول الجميل لا ينفعه وإنما يزيدانه ثورة عليها ونفورا منها ويمضى بقرعها فى صخب وضجيج مصرحا لها بأن يده اليسرى لو خدعته خداعها وتلاعبت به تلاعبها لا يهملها اهمالا، بل لقطعها قطعا لأنه صارماً فى علاقاته بكل الناس يحب من يحبه ويكره من يكرهه ولا يهادن ولا يجامل ولا ينافق

أفاطم ـ قبل بينك ـ متعينى
ومنعك ما سألت كان تبين
فلا تعدى مواعد كاذبات
تمر بها رياح الصيف دونى
فأنى لو تخالفنى شمالى
خلافك ما وصلت بها يمينى
إذاً لقطعتها ولقلت بينى
كذلك أجتوى من يجتوينى

«أجتوى: كره، وخلافك: أى مثل مخالفتك»

وما هكذا عهدنا الشعراء يتغزلون فى مقدمات قصائدهم بمحبوباتهم وأنما عهدناهم يعبرون عن أسر المحبوبات لهم وخضوعهم لهن وتمسكهن بهن بلهجة هادئة واسلوب ناعم

ولكن المثقب العبدى لا يتغزل غزلا عاديا وانما يتخذ هذا الغزل التقليدى وسيلة إلى مخاطبة عمرو بن هند وتحذيره من مغبة سياسته

ثم انتقل إلى تصوير صديقاته المسافرات تصويرا مسهبا ليتخفف به من غضبه وثورته ويتيح لعمرو بن هند فرصة يفكر فيها بما سمع، غير انه لم يمهله طويلا فقد انهى هذا التصوير بيتين أبان فيهما انه لا يستسلم لمحبوبته ولا يذل لها بل يزور عنها ويهجرها إذا مطلته وخذلته لينبه عمرو بن هند تنبيها قويا ويلقى فى روعه انه لن يقبل منه قرارا سياسيا مطاطا لايضع حلا للقضية التى جاء يراجعه فيها وأنه مصر اصرارا عنيدا على أن يعود إلى قبيلته بمعاهدة جديدة تنصفها وترفع الظلم عنها

فقلت لبعضهن وشد رحلى
لهاجرة نصبت لها جبينى
لعلك ان صرمت الحبل منى
كذلك أكون مصحبتى قرونى

«المصحبة : التابعة والقرون: النفس وكذلك أكون مصحبتى قرونى أى إذا قطعت الوصل اطلعت نفسى وقطعت وصلك»

ثم تحدث عن رحلته وناقته حديثا مفصلا ليدل به على فتوته وقوته وليعطى عمرو بن هند فرصة ثانية للتفكير والتقرير ولكنه عاد فختم هذا الحديث بأبيات سأله فيها أن يكون صريحا واضحا فى سياسته مع قبيلته فإما أن يصادقها ويخلص فى صداقتها وحينئذ تعلم منافع محالفته ومضارها وتتصرف على وفق هواها ومصلحتها وإما أن يخاصمها ويجهر بخصامه لها وحينئذ يتحمل مسئولية معاداتها وتعمل بدورها على اتقاء خطره

فإما أن تكون أخى بحق
فأعرف منك غثى أو يمينى
وإلا فاطرحنى واتخذنى
عدوا أتقيك وتتقينى
وما أدرى إذا يممت أمرا
أريد الخير أيهما يلينى
أألخير الذى أنا أبتغيه
أم الشر الذى هو يبتغينى

وإنما سمح للمثقب العبدى أن يراجعى هذه المراجعة العنيفة العنيدة أنه كان يعلم أهمية البحرين للمناذرة والفرس وحرصهم على أن تظل منطقة نفوذ لهم

كما سمح له بذلك أيضا أنه كان يعرف قوة قبيلته وأنها يمكن أن تقاتل المناذرة لأنها لن تقف وحدها فى ميدان المعركة وإنما يسهب لنجدتها بقية قبائل بكر وربيعة فى اليمامة وغيرها

ولعل فى الأمثل السابقة ما يدل على أن القصائد الجاهلية وإن بدا أنها تتكون من أقسام متعددة متباينة المضامين لا تنحمق الوحدة الموضوعية من اجتماعها ووصل بعضها ببعض فإنها كانت تتمثل فيها الوحدة النفسية فقد كان الشعراء من المهارة بحيث عرفوا كيف يصطفون تلك الأقسام ويؤلفون بينها وكيف يحملونها أدق خواطرهم وأوضح أفكارهم لأنهم قد تطوروا بها من التعبير المباشر العادى إلى التعبير الرمزى.